الأبريق المسحور

قصة بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

ترك الأستاذ عطا الله فتاته ندى مع السيدة ڤيولا في داره ، وذهب ليأتي بالزهرية التي طلبتها الزائرة.

وكانت السيدة ڤيولا ، زوجة سامي بك ، قد قدمت مع زوجها في زيارة سياحة وعمل الى هذه المدينة الأثرية الصغيرة . وقد قيل لها أنها واجدة في بيت الأستاذ عطا الله متحفاً صغيراً لأواني الزجاج والخزف الأثرية مما اشتهرت بصنعه هذه البلدة في القديم ، وأصبح الحفارون يتسابقون في التنقيب عنه في خرائبها القديمة هذه الأيام . ولم يخدع السيدة ڤيولا من قال لها ذلك . فقد أحست حين دخلت دار الأستاذ عطا الله أنها افضت الى دار من تلك التي تخيلتها في صباها ، حين كانت تقرأ قصص الف ليلة وليلة في تلك الطبعات الملونة المزخرفة . فقد كانت السيدة ڤيولا فرنسية الأصل ، وعلى أنها مقيمة في هذه الديار منذ أعوام ، منذ أن التقت بسامي بك في باريس واقترنت به ، وعلى أنها اصبحت تتكلم العربية ببعض الطلاقة ، فقد ظلت احلام الف ليلة وليلة تساورها كما تساور كل غربي قرأ عن الشرق وسمع به ولم يتعرف عليه.

ولقد شعرت في دار الأستاذ عطا الله الذي قيل لها أنه معلم مدرسة شغف بآثار هذه البلدة وبدائع اوانيها الزجاجية والخزفية فهجر التدريس وانقطع لدراستها وجمعها ، شعرت السيدة ڤيولا في دار الأستاذ عطا الله هذا انها أقرب ما تكون الى ذلك الجو الاسطوري الذي حلمت به طويلا ولم تعش فيه الا لحظات عابرة أثناء اقامتها في مواطن السحر القديم هذه . وكانت لا تدري أتسعد بهذا الشعور أم ترهبه ، فلما خرج الأستاذ عطا الله وتركها في صحبة فتاته التي كانت طفلة في حوالي العاشرة من عمرها قربت اليها تلك الفتاة الحلوة التقاطيع وسألتها وهي تحاول ان تجد نفسها في ذلك السؤال :

– هل امك هنا يا صغيرتي ؟

فرفعت الصغيرة عينين واسعتين الى السيدة التي كانت امامها وقالت :

– ليس لي أم .

قالتها في براءة . فأحست السيدة ڤيولا أن شيئاً جال في صدرها فضاق هذا به حتى كاد ان ينفجر من موقي عينيها . وضمت الطفلة التي لا أم لها الى صدرها بكل الحنين الذي تحمل الى الطفل الذي لم ترزق به هي . ولم تشأ أن تعود الى ذلك السؤال فقالت ، وهي تجيل نظرها في الأباريق والدوارق وجرار الخزف والصحون البديعة النقوش التي انتثرت على الرفوف وفي جوانب الغرفة :

– أي هذه الآنية أحب اليك يا ندى ؟

فالقت الطفلة نظرة سريعة الى تلك التحف التي كانت تغص بها الرفوف ، ثم قالت :

– عندي شيء خير من هذا كله ... سأريك أياه .

ومن دون أن تنتظر موافقة من السيدة ڤيولا ، انفلتت الطفلة من بين ذراعيها وعدت الى ما وراء ستارة كانت تفصل الغرفة التي هما فيها عن غرفة ملاصقة ، ثم عادت وهي تحمل في يدها دورقاً صغيراً من زجاج ازرق لازوردي شفاف ، ذا علق مستطيل في دقة ، وللعنق عروة نحيلة قائمة الزرقة . كان حقاً تحفة رائعة . وقالت الفتاة :

– أنظري اليه ما أجمله . هذا أبريق لبيك .

فسألت السيدة ڤيولا ، ويبدو أنها لم تكن تعرف هذه الكلمة من مفردات اللغة العربية :

– ما أسمه ؟

قالت الطفلة :

– لبيك . لبيك ، عبدك بين يديك ... أطلبي ما تشائين من هذا الأبريق في ثلاث ليال متوالية قبل العيد الكبير ، ثم ضعيه عند رأسك ليلة العيد ، تجديه في الصباح بين يديك ...

فضحكت السيدة ڤيولا ، وقالت :

– عظيم ما تقولينه يا ندى . ليس العيد الكبير بعيداً عنا ، فما الذي ستطلبينه من هذا الأبريق البديع في العيد المقبل ؟

فزمت الطفلة الحلوة شفتيها ، وتناولت الأبريق من السيدة ڤيولا وهي تقول :

– لن أقول لك . لقد أعطاني الأبريق كل ما تمنيته عليه في الأعياد الماضية . وسيكون طلبي منه هذه المرة عظيماً . ولكني لن أقول لأحد عنه . هذا سر بيني وبينه ...

وتطلعت السيدة ڤيولا الى الصبية الصغيرة التي كانت تضم أبريقها الى صدرها وهي مؤمنة أن هذا المنظر قد عاد بها من جديد الى شعورها الذي انتابها قبل أن يترك الأستاذ عطا الله الغرفة ، شعورها بانها عائشة في جو اسطوري ، تائهة في ضباب الأحلام ، احلام الف ليلة وليلة . ولم تدر كيف مالت على الطفلة ندى وقالت لها :

– يا حبيبتي ، أما تعطيني هذا الأبريق ؟

فنظرت هذه اليها باستغراب كأنها دهشة من سؤالها هذا بعد ما بينته لها من قيمة ابريق لبيك . فأعادت السيدة ڤيولا عليها :

– ان لي به حاجة يا حبيبتي . حاجة شديدة ...

ورفعت الصبية بين ذراعيها وأجلستها على ركبتيها ثم همست في أذنها همساً طويلا ... ولما عاد الأستاذ عطا الله يحمل آنيته قالت السيدة ڤيولا :

– اضف ثمن هذا الأبريق على الحساب يا أستاذ .

فقال الأستاذ عطا الله :

– ارجوك يا سيدتي ، هذا أبريق ابنتي ندى ... وهو ليس للبيع .

فقالت الزائرة :

– لقد اتفقت مع ندى . اليس كذلك يا حبيبتي ؟ اني انتظر منك مكتوباً ... وهذا يا أستاذ عطا الله عنواننا في دمشق ...

* * *

كان باقياً على حلول عيد الأضحى خمسة أيام حين جاء سامي بك الى داره في دمشق يحمل ظرفاً مختوماً القاه على المائدة أمام زوجته السيدة ڤيولا وهو يقول باسماً :

– ما هذا يا عزيزي ؟ اراك قد عقدت صداقات وراء ظهري في تلك المدينة الصغيرة التي زرناها في الربيع ... ولكن صاحبك هذا لا يدري أنك اذا كنت تتكلمين العربية بطلاقة فأنت لا تقرأين منها حرفاً واحداً . ماذا لي لقاء قراءتي هذه الرسالة لك ؟

فضحكت السيدة ڤيولا وهي تقول :

– لا تكن سيء الظن يا سامي ، هذه رسالة من صديقة لا صديق .

ففض سامي بك الظرف وأخرج منه ورقة مكتوبة وظرفاً آخر مطوياً ومختوماً ، وقال :

– بل اراها مجموعة من الأصدقاء يا عزيزتي. لنر اولا ماذا تقول هذه الرسالة.
وأخذ سامي بك يقرأ :

سيدتي الكريمة

أراني في حيرة مما اريد كتابته اليك . فقد ساقني الفضول مساقاً لا أدري أأحمده أم اذمه ، وهو الذي انتهى بي الى أن اكتب اليك هذه الرسالة ، وكان المفروض أن تكون رسالة من ابنتي ندى اليك .

إنك تذكرين ولاشك فتاتي الصغيرة التي تنازلت لك عن ابريقها ، ابريق لبيك . لقد عجبت ساعتها كيف رضيت فتاتي أن تترك لك هذه الآنية العزيزة عليها ، ولكني طبت نفساً حين علمت بعد ذهابك سبب رضاها ذاك . فقد قصت علي ما كنت قد قلته لها . وارجو أن لا يسوءك يا سيدتي علمي ببعض أحوالك الخاصة ، فان الحياة قد شقت لكل منا طريقه ، ولن تلتقي طريقانا مرة اخرى ليزعجك أن اكون عارفاً من أمرك ما قد تودين كتمانه .

لا ادري اذا كنت تبينت من حديث ابنتي انها وحيدتي واني قد انقطعت عن كل شيء في الحياة من اجلها بعد أن ذهبت أمها ؟ ... تلك حكاية طويلة لن يهمك منها الا قصة ابريق لبيك . وقد بدأت هذه القصة في تلك العشايا الباردة منذ بضع سنين حين كنت ادخل في روع طفلتي ندى وهي تحبو بين يدي أن هذا الأبريق هو بقية من بقايا ملك قديم من ملوك الزمان كان يتسلط به على الجان ، فاذا عرك أذنه قام خادمه بين يديه وهو يصيح : لبيك ، عبدك بين يديك ! ولقد كبرت ابنتي بعد ذلك ، ولكنها ظلت معتقدة بسحر هذا الأبريق ، فكنت أقوم لها انا بنفسي بدور خادمه ، دور مارد الجان الذي يؤمر فيطيع . وما كان أسعد ندى حين كانت تكتشف في صبيحة كل عيد أن تمنياتها التي كانت تفضي بها الى الأبريق الأثري في ثلاث ليال متوالية قبل العيد الكبير كانت تتحقق بقدرة قادر في صبيحة العيد .. وما تلك التمنيات ؟ ... كانت دمية كالتي رأتها عند ابنة الجيران ، او ثوباً احمر وأخضر ، أو حفنة من السكر الحامض الحلو ... ما كان احلاها من أمنيات سهلة التحقيق ، ولكن الذي لم يدر بخلدي يوماً ما أن ابنتي سوف تستعين بأبريقها السحري لتحقيق أمنية كبرى خطيرة في حياتي وحياتها . كما انه لم يدر بخلدي ان لهذا الأبريق من القدرة ما لم يخطر ببالي ... فيكون الأداة الطيعة لتحقيق تلك الأمنية .

اعذريني يا سيدتي اذا اطلعتك من حالي الخاصة على أمور لا تهمك . لقد عشت كما قلت وحيداً مكرساً كل حياتي لتربية ابنتي واسعادها . لكم مر ببالي أن اعيد التجربة واتزوج ، ولكن تعلق ندى بي كان يحطم كل عزم يمر ببالي في ذلك الاتجاه . وحتى حين حل بلدتنا الصغيرة صديق قديم لوالدي ربيت وأبناءه في حارة واحدة في صغري ولقيت بنتاً له كان لها في نفسي ذكريات ماضية حلوة ، حتى حين حدث ذلك لم اجرؤ أن امضي في احلامي حول زواجي من تلك الفتاة رفيقة الصبا ، خوفاً من أن تتوهم ابنتي أن قلبي المكرس لها قد ذهب قسم منه الى أمرأة دخيلة . ولكني ما كنت ادري أن ما بنفس ابنتي كان غير الذي بنفسي حتى كتبت هي اليك هذه الرسالة التي اطوي عليها كتابي . فاذا فضضت يا سيدتي هذا الظرف الذي يحتوي رسالة ندى اليك ، عرفت أنها كتبت اليك باسلوبها الصبياني وبالأنشاء الذي استعانت على تقويمه بابنة الجيران ، كتبت اليك تطلعك على امنيتها التي تريد من ابريقها المسحور ، وقد أصبح اليوم في حوزتك تحقيقها في هذا العام . هذه الأمنية ليست غير أن يسعد الله اباها ويلهمه ان يتزوج زهرة ، وهي الفتاة التي قلت لك انها أبنة صديق والدي القديم ، لأن ندى تحب زهرة هذه ولا تريد أن يحتويها بستان غير بستان ابيها الحبيب.

لقد كان فضولا مني يا سيدتي ، وربما كان سوء تهذيب كذلك ، أن افض الرسالة التي اسلمتني أياها ابنتي لأرسلها اليك بعنوانك . ولكنك ترين كم أنا سعيد بما انتهى اليه ذلك الفضول وسوء التهذيب ذاك . ان العيد الكبير اصبح على الأبواب ، فاذا تفضلت وحققت رجاء ابنتي بأن ترددي امنيتها ثلاث ليال متوالية على ابريق لبيك فانا على مثل اليقين من أن تلك الأمنية ستتحقق في صبيحة العيد . وما أعظم سعادة ابنتي حين تجد أن ابريقها لم يخيب لها ظناً حتى على البعد . بقيت امنيتك يا سيدتي ، تلك التي رددتها على مسامع ندى وكانت من الحرارة بحيث لم تملك نفسها من أن تتنازل لك عن الأبريق المسحور . امنية أن يرزقك الله ولداً فيديم عليك حب زوجك الذي كثر عليه اللوام أن تزوجك أجنبية لست من جنسه ولا دينه ، وكثر المشيرون عليه بأن ينشد أمرأة سواك تعطيه الوارث وقرة العين . أذكري يا سيدتي امنيتك لأبريق لبيك. فمن يدري أن ليس فيه سر عجزت عن ادراكه عقولنا نحن الراشدين وادركه قلب ندى تلك الطفلة البريئة ؟

آمني يا سيدتي بسحر هذا الاناء القديم كما آمنت فتاتي وأنا واثق أن امنياتك ستتحقق مثلما تحققت وستتحقق امنياتها . فاذا لم يكن هناك في الأناء الجامد من سحر ، فان سحر القلوب الأنسانية حقيقة لاشك فيها .

ولك يا سيدتي كل تقديري .

عطا الله

وكان صوت سامي بك قد انتهى الى الخفوت حين صار الى ختام رسالة الأستاذ عطا الله . وقد حاول أن لا يرفع بصره لئلا تلتقي نظراته بنظرات زوجته السيدة ثيولا ، فجعل همه أن يمزق الظرف عن الرسالة الأخرى التي كانت مطوية داخل رسالة الأستاذ عطا الله ، رسالة ابنته ندى . ولكنه لم يستطع الصبر طويلا . لقد عرف من رسالة الأب محتوى رسالة ابنته ، وعرف فوق ذلك الهم الذي شغل بال زوجته الحبيبة فجعلها تلتمس في الأوهام فرجاً له . فلم يلبث أن مد يده الى اليد الباردة التي كانت ملقاة على المائدة ، فرفعها إلى شفتيه وهو يقول :

– ارثني يا عزيزتي هذا الأبريق المسحور الذي كتمت امره عني . فاني أظن سحره هو الذي اثر علي في هذه الأيام فجعلني اراك بعين جديدة لم ارك بها قبلا ... لم ارك قبل اليوم بهذا الشباب وهذا الجمال وهذه الفتنة ... اما الأولاد الوارثون ، فخل امرهم لذلك الابريق ... بعد الله .

فلم تجبه السيدة ثيولا بكلمة . ولكن عينيها كانتا غائمتين بالدمع ، وقلبها كان طافحاً بالسعادة والرضى ...

الرقة – سوريا

عبد السلام العجيلي

آخر ما صدر عن دور النشر العربية

تجده في

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

ص.ب ٦٥٦

تلفون ٢٧٦٨٢

بيروت لبنان